02 محتوى الدروس

الدرس الأول: *هيجل علاقة الجدل (المنطق) بالتاريخ.*

تعتبر فلسفة التاريخ الهيجلية من أهم الأعمدة الفكرية التي ميزت فكر القرن التاسع عشر، سواء في ألمانيا أو خارجها، ومن هذا المنطلق لم يكن هذا الفيلسوف مجرد متتبع أو ملاحظ للتاريخ الفعلي للبشرية، بل ومن خلال موسوعته وفلسفته الروحية لم يفصل بين العقلي والتاريخي، والتاريخي والعقلي، لهذا السبب اعتبرت نظرته للعقل هي ذاتها نظرته لتاريخ. فما يحدث في الواقع ليس سوى تمظهر من تمظهرات الروح، من خلال هذه القضية الأولى يتضح لنا بأنه لا يمكن التطرق إلى فلسفة التاريخ عن هيجل دون محاولة الوقوف عند العلاقة بين العقل والواقع، الروح والمادة.

وإذا كانت فلسفة هيجل في نطر الكثيرين من أصعب الفلسفات الحديثة فهما كما اعترف بذلك برتراند راسل نفسه[1]، وهذا لا يرجع فقط لطابعها التجريدي وغزارة كتاباتها، وإنما كذلك لأنها تشكلت في إطار نسق شامل لا يمكن الفصل بين مكوناته، وعليه فهذا ما يفسر العدد الكبير من المؤلفات التي عبرت عنها، وهذه الكتابات مازالت محل دراسات يحاول أصحابها اكتشاف المخفي في طياتها. ضف إلى ذلك فإنها تضمنت مفاهيم أساسية فهمها يقربنا من محتوى تلك الفلسفة، ومن هذا الجانب لابد من الإشارة إلى وجود اختلاف بين الشرحين لفلسفة هيجل حول معنى تلك المفاهيم.ومن هنا تكون فلسفة هيجل صعبة الفهم حيث كل عناصرها متراتبطة ببعضها ولا يمكن عزل قضية جزئية وفهمها بصورة منفردة.

فلنبدأ بما هو أساسي، من الصفات التي ميزت فلسفة هيجل ويقع عليها إجماع قد يؤدي إلى الغموض أحيانا هي " المثالية" (Idéalisme)، وحول هذه النقطة تحديدا، لم يتبع تجريبية د.هيوم التي أدت فلسفته إلى الريبية العلمية كما وصفها كانط، ولم يتبع كانط ابن جلدته في

[1] انظر: برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، ص304.

المثالية النقدية[2]مما يجعل البعض ينظر إلى فلسفة هيجل على أنها فلسفة لا تمت بأية صلة بالواقع أنها لا تختلف عن الميتافيزيقا اليونانية و الوسيطية، وحول هذه النقطة بالذات يقول فؤاد زكريا في مقدمة المترجم لكتاب العقل والثورة لصحابه هيربرت ماركيوز الذي يعد من أشهر شراح هيجل في القرن العشري:‹‹ ***فالمثالية، في نظر المؤلف، محاولة لإضفاء نظام على الواقع التجريبي المضطرب، وهو نظام مستمد، بطبيعة الحال، من العقل أو من الفكر نفسه.وحين يترجم هذا الموقف إلى اللغة السياسية أو الاجتماعية فإنه يعني أم المثالية تسعى إلى تحرير المجتمع من قبضة العوامل العشوائية التي نضل تحكم فيه مادام هذا المجتمع نهبا للعمليات الآلية التي تسيطر عليها قوى غير عقلية: كمتطلبات السوق والسعي إلى الربح أو المنافسة بين المنتجين،.. الخ. وعللا ها النحو يحكم المؤلف على المثالية الألمانية بأسرها بأنها كانت حركة تحررية*** ››[3].

لذلك السؤال الذي يفرض نفسه مبدئيا هو ما علاقة فلسفة هيجل بصورة عامة بفلسفته حول التاريخ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال الذي بهمنا بشكل مباشر، لا يمكن أبدا الإحاطة بها في مساحة ضيقة كهذه، لذلك سنحاول أن التركيز على أهم مكونات فلسفة هيجل ليتسنى فيها بعد الوقوف عند أهم خصائص و مميزات فلسفته حول التاريخ.

لقد تمت الإشارة سابقا أن فلسفة هيجل هي "فلسفة نسق"، والنسق هنا لا يفهم منه مجرد الكل الذي يتضمن الأجزاء بل أنه أكثر من هذا كونه يحيل إلى الوجود وإلى الحقيقة في أن معا، وبهذا يعد من أهم المفاهيم التي بنيت عليها فلسفة هيجل، فما لم نفهم دلالة النسق ستبقى بالنسبة لنا فلسفة هيجل متشكلة من كلمات صماء أي بلا معنى، والمدخل الرئيس للنسق إنما

[2] انظر ديالكتيك هيجل، موسوعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة فراس الحمداني، مجلة حكمة، https://hekmah.org/

[3] هيربرت ماركيوز، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر- القاهرة، 1970، ص.7

يتمثل في ما المعنى الذي أخذه "***الديالكتيك***"* أو الجدل عند هيجل. فسواء في نظر هيجل أو المثاليين الألمان كفشته وشيلينغ، فإن الكون هو ***روح مطلق*** (Esprit absolu)، تشكل عبر عدة مراحل من التطور في الزمان ومادامت الروح في المستوى الطبيعي فإنها لا تعي ذاتها ويحصل للروح أن تعي ذاتها لما تجلت وتحققت في عقل الإنسان[4] وهذا الروح يحتوي على كل شيء ومكتمل.

ويستند هيجل إلى "الديالكتيك" أو "الجدل" من خلال منحه دلالة متميزة تختلف عن الدلالات التي عرف الديالكتيك عند الفلاسفة الآخرين من أفلاطون إلى كانط مرورا خاصة بأرسطو. وكما يشرح ذلك كولي رايت في الكتاب المذكور أعلاه بالطريقة التالية: ‹‹ ***يزعم هيجل أنه عن طريق منهجه المنطقي الذي يسميه الديالكتيك، كيف يربط كل شيء من حيث المبدأ بكل شيء آخر ويساعد في تكوين ذلك الكل الواحد. ولم يسير منهج البرهان عند هيجل في خط مستقيم على نحو ما يفعل المنهج عند ديكارت، إذ أنه لم يبدأ بقضية بسيطة لا يمكن الشك فيها، ويحاول أن يبرهن على كل خطوة متتابعة في حجته العظيمة بطريقة رياضية. وإنما النسق عنده (اي هيجل) هو نسق تضميني، بنعنى أن كل طور من أطوار الحجة يتضمن بقية الحجة كلها. (...) والنسق الذي يتم فيه تفسير كل شيء بطريقة واضحة ومتسقة لابد أن يكون صادقا. لأن الحقيقة هي الكل، إن الحجة في كل مكان عقلية، لأن الواقعي عقلي والعقلي واقعي**** ››[5]. من هنا يصبح المنطق عند هيجل ليس مجرد أداة لاكتشاف الحقيقة، بل الديالكتيك يعبر عن الروح وهو الروح ذاته. فالديالكتيك عند هيجل له هذه الأهمية، فهو كيفية يسير عليها التاريخ والعقل معا، لذلك لابد

* في الموسوعة الفلسفية المختصرة الجدل أو الديالكتيك يستمد اسمه من الفعل اليوناني الذي يعني" يحاور" وكان يعني في الأصل فن الحوار أو النقاش..

[4] وليام كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر محمود سيد أحمدأ التنوير، ابيربوت، لبنان، 2010، ص 311.

* استند كولي رايت في هذه المقولة ألى كتاب فينومينولوجيا الروح في طبعته الإنجليزية.

[5] كولي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.م.س، ص311.

من اعتبار فيلسوفا كبيرا فهو يستعمل مصطلحات القدماء لكن بمنحها دلالات جديدة نكون مخطئين اذا ابقيناها على المعاني القديمة.

وإذا كان الجدل سيرا أو حركة فهو بطبيعة الحال حركة ضرورية ثلاثية[6]، تنتقل من الفكرة أو القضية إلى نقيضها ثم التأليف، وهذا يعني أن العناصر الثلاثة متفاعلة فيما بينها فالنقيض موجود في القضية والتأليف موجود في القضية ونقيضها معا.فالديالكتيك لا يحتوي على قفزات من محطة إلى أخرى توجد بيمهما فراغ بل كما وصفه الكثيرون[7].

فالديالكتيك بهذا المعنى وبهذه الديناميكية أو الصيرورة يصبح التغيير مسألة لا مفر منها كونه يتعارض مع الثبات، لأنه (الجدل) يقوم على مبدأ التناقض، فالنقيض محمول في الفكرة ويفعل فعله ليظهر النقيض وهكذا، لهذا السبب اعتر هيربرت ماركيوز فلسفة هيجل حول العقل والتاريخ فلسفة ثورية بامتياز[8]، وهنا يمكن القول أن هذه الأداة الفلسفية المنطقية المتمثلة في الجدل هي التي سيعتمد عليها هيجل اعتمادا كليا لتأسيس فلسفة تاريخ جديدة لم يستطع فكر القرن التاسع عشر تجاوزها.

---

[6] فلسفة التاريخ عند الفيلسوف الألماني هيجل، سلمان علاء الشافعي، https://www.alukah.net/culture/

[7] انظر في هذا الصدد كتاب المنهج الجدلي عند هيجل لإمام عبد الفتاح إمام، تنوير، بيروت، 2007 ص.ص (15 – 29)

[8] انظر **العقل والثورة**، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970. (التركيز على مقدمة الكتب (ملحوظة عن الجدل) ومن الباب الأول التركيز على الفصول 5،6،7. و من الباب الثاني التركيز على المقدمة والفصل 1.